تاريخ استقبال المقال: 2018/12/16 تاريخ قبول نشر المقال:2019/05/25 تاريخ نشر المقال:2019/06/05

نشأة وتطور المدن – حتمية الزمان والمكان

- دراسة تحليلية سوسيو- تاريخية-

The emergence and development of cities

- the inevitability of time and place.

-An analytical socio-historical study-

د. نوري محمد [1]

د. بودالي بن عون [2]

ملخص:

إن المدينة خلاصة تاريخ الحياة الحضرية ، فهي الكائن الحي كما عرفها كثير من علماء العمران ،فهي الناس المواصلات وهي التجارة والاقتصاد، والفن والعمارة، والصلات والعواطف، والحكومة والسياسة ،والثقافة والذوق، وهي أصدق تعبير لانعكاس ثقافة الشعوب وتطور الأمم ، وهي صورة لكفاح الإنسان وانتصاراته وهزائمه ، وهي صورة للقوة والفقر والحرمان والضعف.إن قيام المدن ونموها مسألة يصعب أن نتتبعها بدرجة ملحوظة لأسباب عديدة، ومما لاشك فيه أن المدن انبثقت تعبيرا عن ظروف روحية ومادية واجتماعية وسياسية، وانعكست هذه الصور على تغير المدن ونمو العمارة ، فهي إذن حتمية سوسيو-تاريخية نشأت من تقاطع الزمان و المكان.

الكلمات المفتاحية : المدينة- حتمية الزمان و المكان - الحياة الحضرية – العمران

Abstract:

The city is the conclusion of urban life.It is the « humanbeing » as the populousness scientists defined.It is : people and tranports.It is business and economics, art and construction,relations and emotions,goverment and politics,culture and taste.It is a valid expression of the reflection of the population culture and nations development .It is an image of man's struggle, and his victories and defeats.It is also an image of power and poverty,need and weakness.The development and growth of cities is a problem which is difficult to follow in a clear way,for a number of reasons.With no doubth,the cities emerged as an expression of spiritual , material, social and political conditions.This image has been reflected on the cities changes and contruction development.So, it is an inevitability of socio-historical which has been emerged from the intersection of time and place.

Keywords : city-inevitability of time and place- urban life-populousness

[1]. مرسل المقال: أستاذ بجامعة الاغواط nourimohamed71@gmail.com

[2]. أستاذ بجامعة الاغواط bts.benaoun@gmail.com

1- مقدمة :

إن المدينة خلاصة تاريخ الحياة الحضرية ، فهي الكائن الحي كما عرفها كثير من علماء العمران ،فهي الناس المواصلات وهي التجارة والاقتصاد، والفن والعمارة، والصلات والعواطف، والحكومة والسياسة ،والثقافة والذوق، وهي أصدق تعبير لانعكاس ثقافة الشعوب وتطور الأمم ، وهي صورة لكفاح الإنسان وانتصاراته وهزائمه ، وهي صورة للقوة والفقر والحرمان والضعف.

إن قيام المدن ونموها مسألة يصعب أن نتتبعها بدرجة ملحوظة لأسباب عديدة، ومما لاشك فيه أن المدن انبثقت تعبيرا عن ظروف روحية ومادية واجتماعية وسياسية، وانعكست هذه الصور على تغير المدن ونمو العمارة ، وأكد بارنز:"أن العمارة هي سجل لعقائد المجتمع"، ويقصد بنشأة المدن: "هي مرحلة المدينة في فجر قيامها"، وتتميز بانضمام بعض القرى لبعضها البعض، واستقرار الحياة الاجتماعية إلى حد ما ،وقد قامت المدينة في هذه المرحلة بعد اكتشاف الزراعة وقيام الصناعات اليدوية.

بالرغم من كثرة العلماء المهتمين بتعريف المدينة إلا أنهم لم يعطوا تعريفا واضحا لها ،ذلك أن ما ينطبق على مدينة لا ينطبق على أخرى ، لأنها عرفت باختصاصات متعددة حسب وجهة نظر كل عالم ، فمنهم من فسر المدن في ضوء ثنائيات تتقابل بين المجتمع الريفي والحضري، ومنهم من فسرها في ضوء العوامل الايكولوجية، ومنهم من تناولها في ضوء القيم الثقافية و منهم من فسرها على الأساسات: الإحصائي ، الحجمي ، الإجتماعي ، الوظيفي و التاريخي و الموقعي.

من خلال ما سبق نطرح التساؤل الرئيسي التالي : ما هي المفاهيم المرتبطة بنشأة هذا الفضاء الجغرافي المسمى " المدينة" و ما هي أهم المحطات التي مرت بها المدن عبر التاريخ و التغيرات التي طرأت على هذا المكون المتعدد الأبعاد ؟ .

2 - مفهوم المدينة و تطورها :

تعرف المدينة في اللغة اللاتينية بأنها Civitas من الحضارة .أي المكان المتحضر .والـ(البوليس) polis أي المكان الذي يفرض فيه النظام .كما عرّف ليون باتسيتا البرتي L. Batsita Alberti مهندس عصر النهضة .المدينة بأنها الراحة والجمال(L.B, 1976) .

أما معنى المدينة في اللغة العربية يرجع أصلا إلى كلمة "دين" ولها جذور في اللغة الآرامية أي أنها ذات أصل سامي. وعرفت المدينة عند الأكاديين والآشوريين بالدين أي "القانون". و في تفسير آخر فإن كلمة مدينة ترجع إلى الأصل مدن أو استقر (خالد، 1980). عموماً فإن دلالة الكلمة في اللغات اللاتينية والعربية تعبر عن: الاستقرار و النظام تحقيق الصيغة القضائية، الحضارة، الراحة والجمال. أي هي المكان الجميل الذي تتحقق فيه راحة الإنسان في ظل نظام يُفرض بقوة القانون وهي قبل كل شيء مركز إشعاع حضاري يقوم بدور تحديثي من خلال نشر أفكار العصر.

3 - نشأة المدينة :

يرى الكثير من المفكرين و العلماء ، القدماء منهم و المعاصرين ، و على رأسهم أفلاطون أن المدينة تنشأ أصلاً من عجز الفرد عن الاكتفاء بنفسه في سد حاجاته المتنامية ، فيجتمع في مكان واحد عدد من الشركاء المتعاونين يشكلون مجتمعا يطلق عليه اسم " مدينة " Polis ، يتم فيه الأخذ و العطاء بحيث يعتقد كل منهم أن التبادل يعود عليه بالمنفعة (أفيبريونوس، 1996).

و تصف طائفة أخرى من المفكرين المدينة على أنها ذلك التجمع البشري البالغ الكثافة و الذي يتميز بالتعقيد و التنظيم في آن واحد. و هي تضم مكونات مادية و أخرى غير مادية متلاحمتين فيما بينهما.

كما أن المدينة تعتبر مركزا لتلبية المصالح و قضاء الحاجيات و الأغراض المتعددة و المتنوعة للأفراد و الجماعات باختلاف أهدافهم و ميولاتهم النفسية و الاجتماعية.

هناك الكثير من الأسباب التي أدت إلى ظهور المدن و نشأتها ، فقد نشأت بعض المدن نتيجة للتبادلات التجارية أما البعض الآخر فظهر نتيجة للبحث عن الأمن ، و منها من نشأ أيضاء بسبب ظهور مقومات الصناعة و توفر فرص العمل و منها من نشأ بسبب الأهمية التاريخية. و مع مرور الزمن تطورت هذه المسببات حتى أصبحت في معظم الأحيان الوظيفة الرئيسية التي تمارسها المدينة حتى أن كثيرا من المدن عرفت و اشتهرت بوظيفتها فالوظيفة هي مبرر وجود المدينة ، و محدد نمط الحياة فيها و الأساس في قيامها و تشكيلها ، بذلك يرجع نشأة المدينة في الأساس إلى ضرورة تلبية حاجات الإنسان المادية و المعنوية بشتى أنواعها.

و يؤكد هذا العلامة ابن خلدون في مقدمته : " أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف و دواعيه ، فتؤثر الدعة و السكون ، و تتوجّه إلى اتخاذ المنازل للقرار.ولمّا كان ذلك للقرار و المأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضارّ بالحماية من طوارقها ، و جلب المنافع و تسهيل المرافق لها" (ابن خلدون، 1984).

و يضيف ابن خلدون عن المدينة :" المدن و الأمصار ذات هياكل و أجرام عظيمة و بناء كبير ... و هي موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج إلى اجتماع الأيدي و كثرة التعاون ... فلا بد في تمصير و اختطاط المدن من الدولة." (ابن خلدون، 1984) و يوضح علماء الجغرافيا الحضرية أن نشأت المدن كانت نتيجة الرغبة في التعايش كمجموعات بالنسبة للأفراد و لتحقيق الاستقرار الذي كان يحاول الإنسان القديم جاهدا الحصول عليه، فمن الريف والصحراء والغابات ، بدأ ينتقل تدريجيا للوصول إلى مفهوم جديد

للتعايش، يضمن استقراره، ويحقق له في نفس الوقت الحماية من كل المؤثرات الخارجية .

ولقد وجهت الدراسة دائما الباحثين للسؤال:متى وأين وتحت أي ظروف ظهرت هذه المدينة وماذا أسهمت به في تاريخ المنطقة أو العصر؟ وهل هناك نمو تطوري أو دوري في التاريخ الإنساني مرتبط بظهور المدن أو نموها ؟

إن قيام المدن ونموها مسألة يصعب أن نتتبعها بدرجة ملحوظة لأسباب عديدة، ومما لاشك فيه أن المدن انبثقت تعبيرا عن ظروف روحية ومادية واجتماعية وسياسية، وانعكست هذه الصور على تغير المدن ونمو العمارة ، وأكد بارنز:"أن العمارة هي سجل لعقائد المجتمع"، ويقصد بنشأة المدن:"هي مرحلة المدينة في فجر قيامها"، وتتميز بانضمام بعض القرى لبعضها البعض، واستقرار الحياة الاجتماعية إلى حد ما ،وقد قامت المدينة في هذه المرحلة بعد اكتشاف الزراعة وقيام الصناعات اليدوية.

4 - المدينة (التعريف والخصائص):

إن المدينة خلاصة تاريخ الحياة الحضرية ، فهي الكائن الحي كما عرفها كثير من علماء العمران منهم لوكوربزيه ،فهي الناس و المواصلات وهي التجارة والاقتصاد، والفن والعمارة، والصلات والعواطف، والحكومة والسياسة،والثقافة والذوق، وهي أصدق تعبير لانعكاس ثقافة الشعوب وتطور الأمم ، وهي صورة لكفاح الإنسان وانتصاراته وهزائمه ، وهي صورة للقوة والفقر والحرمان والضعف .

4-1- تعريف المدينة:

بالرغم من كثرة العلماء المهتمين بتعريف المدينة إلا أنهم لم يعطوا تعريفا واضحا لها ،ذلك أن ما ينطبق على مدينة لا ينطبق على أخرى ، لأنها عرفت باختصاصات متعددة حسب وجهة نظر كل عالم ، فمنهم من فسر المدن في ضوء ثنائيات تتقابل بين المجتمع الريفي والحضري، ومنهم من فسرها في ضوء العوامل الايكولوجية، ومنهم من تناولها في ضوء القيم الثقافية و منهم من فسرها على الأساسات: الإحصائي ، الحجمي ، الإجتماعي ، الوظيفي و التاريخي و الموقعي.

- إحصائياً: تشير الإحصائيات إلى أن كثافة أكثر من 10000 شخص في الميل المربع الواحد تشير إلى وجود مدينة بحسب رأي مارك جيفرسون، ويعتبر ريفا كل ما عدا ذلك من البلدان (خالد، 1980).
- حجماً : لقد أجمعت بعض الهيئات الدولية على أن المكان الذي يعيش فيه أكثر من 20000 نسمة فأكثر يعتبر مدينة ، أما في أميركا فقد اعتبرت أكثر من 2500 نسمة يشكلون مدينة، أما في فرنسا فأكثر من 2000 نسمة يحددون مدينة (خالد، 1980).
- اجتماعيا: المدينة ظاهرة اجتماعية، وهي ليست مجرد تجمعات من الناس برأي روبرت بارك مع ما يجعل حياتهم أمرا ممكنا، بل هي اتجاه عقلي و مجموعة من العادات والتقاليد إلى جانب تلك الاتجاهات والعواطف المتأصلة في هذه العادات والتي تنتقل عن طريق هذه التقاليد، وهي في النهاية مكان إقامة طبيعي للإنسان المتمدن ،ولهذا السبب تعتبر منطقة ثقافية ، تتميز بنمطها الثقافي الخاص.
- وظيفياً: لا يوجد للمدينة وظيفة واحدة بل لها عدة وظائف ، منها أنها وحدة عمرانية ذات تكامل وظيفي، فهي لا تشمل قطاع الزراعة فحسب (كما في الريف) بل تتعداه للصناعة والتبادل التجاري والصناعات الثقيلة، وتجارة القطاعين الخاص والعام، والحرف وكل ماله علاقة بوصول تطورها إلى العالمية، وتسمى هذه الصناعات بالصناعات الحضرية. أما د.عاطف غيث فيعرف المدينة على أنها المكان الذي يعمل أغلب سكانه في مهن غير زراعية وما يجعل المدينة شيئا محددا ،هو ذلك التكامل الوظيفي لعناصرها المختلفة على هيئة وحدة كلية (غيث، 1989).
- تاريخياً: وعرف ممفورد المدينة بأنها حقيقة تراكمية في المكان والزمان ،ويمكن استقراء تاريخها من مجموعة التراكمات التاريخية، والأخذ بالمبدأ التاريخي الذي يقول أن المدينة تاريخ قديم ، وأن التعرف عليها يتم من خلال الشواهد العمرانية القديمة.
- موقعياً: تنشأ المدن في مواقع مختارة تتمتع بأفضليتها عن سواها من المدن ،ويرى الجغرافيون أن المدينة حقيقة مادية يمكن تحديدها والتعرف عليها بمظهر مبانيها وكتلتها وطبيعة شوارعها ومؤسساتها وكذلك تفردها بخط سماء مميز profil urbain.

وهناك نقاط و معالم جغرافية وعمرانية تحدد مفهوم المدينة موقعيا ، فالنقاط الجغرافية:

- ✓ نقاط جغرافية بيئية (خطوط الساحل، بحر، سلسلة جبال، أنهار وتلاقي فروع).
- ✓ نقاط تلاقي طرق النقل (مواصلات، سكك حديد، سيارات).
- ✓ نقاط إستراتيجية تجمع بين مزايا البر والبحر (أنفاق ومواقع نقل جوي وبحري وضائق).

أما المعالم المميزة عمرانيا ومعمارياً ، فأوجزها جون بيار بولي J.P.PAULET كما يلي (J.P.PAULET، 2001) :

- ✓ وجود المباني المرتفعة والمتقاربة والمنازل ومكاتب الإيجار.
- ✓ عادات وتقاليد أهل الريف.
- ✓ الكثافة العالية للسكان.
- ✓ المهن والحرف المتعددة.
- ✓ الهيئات الاجتماعية الغير موجودة في الريف.
- ✓ تميز المدينة بالحركة.
- ✓ تعقد الحياة والروابط بين سكان المدينة والمدن الأخرى.
- ✓ تعدد الأقليات في المدينة.
- ✓ المدينة مركز إشعاع ثقافي وفني وعلمي.

وأخيراً هناك تعريفات متعددة للمدينة نذكر بعضها :

- امتداد القرية على افتراض أن هناك تدرج مستمر بين ما هو ريفي وبين ما هو حضري.
- مجتمع محلي يتميز بمجموعة مركبة من السمات التي يمكن إدراكها.

- المدينة هي تجمعات سكانية كبيرة وغير متجانسة ، تعيش على قطعة أرض محدودة نسبيا، وتنتشر منها تأثيرات الحياة الحضرية المدنية ، ويعمل أهلها في الصناعة والتجارة والوظائف السياسية والاجتماعية.

- وهي وحدة جغرافية مساحية يعيش فيها عدد كبير من السكان، تتباين مستوياتهم الاقتصادية والاجتماعية، ويترافق مصطلح المدينة مع مفهوم الحضر والتحضر، حيث أنهم أوجدوا المفهوم بابتعادهم عن الريف، والأعمال الزراعية، وأصبحت المجالات الصناعية رفيق التطور والمدنية.

لذلك فإن دراسة أي مدينة أو منطقة عمرانية معينة ، يستدعي في كثير من الأحيان اللجوء إلى العديد من الاختصاصات باعتبار المدينة هي في آن واحد :

- إطار فيزيقي : مجموعة المباني و المنشئات المتقاربة و المتجاورة في حيز جغرافي محدد تخدمها شبكات تقنية.
- إطار إقتصادي ديناميكي .
- إطار اجتماعي ملائم للدخول في علاقات اجتماعية (Lacase, 1995) .

4-2- المدينة في التراث العلمي :

نتناول فيما يلي بعض النظريات الخاصة بنمو وتطور المدن، وهي:

4-2-1 المدينة في الفكر الخلدوني :

يعد المفكر العربي ابن خلدون (1332-1406م) من أوائل المفكرين الذين اهتموا بدراسة ظاهرة النموّ الحضري، فاهتمّ في مقدمته المشهورة بمعالم نشاة المدن والظواهر المرتبطة بها، وكتب في هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الباب الرابع الذي كان عنوانه (في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق). ويشير علماء الاجتماع إلى أنّ ظاهرة النموّ الحضري يرتبط بها كثير من الظواهر والمشكلات، لعل من أهمها سيادة العلاقات الاجتماعيّة الثانويّة التي تتصف بالسطحيّة والعموميّة والنفعيّة، وانتشار الضبط الرسمي، وكثرة الحراك الجغرافي والمهني والطبقي، وزيادة معدل الفردية، وطغيان القيم الفردية على القيم الجمعيّة، وضعف الاتجاهات والقيم الدينيّة في نفوس الأفراد والجماعات. كما أنّ المدينة تعد مركز جذب لمختلف الشرائح الاجتماعيّة التي تغزوها، بحثاً عن فرص العمل والحصول على الخدمات المتوافرة فيها، فضلاً عن أنّ المدينة هي المكان الخصب لتطوير ونموّ النواحي المعنويّة والماديّة للإنسان.

وانطلاقاً من ذلك فان رؤية (ابن خلدون) لهذه الظاهرة بلغ شاناً بعيداً، عندما استخدم مفهوم (العمران المفرط) بقوله "إن الحمامات بلغ عددها في بغداد في عهد المامون (65 الف) حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط العمران، أي التضخم الحضري والعمراني وكذا حال القيران وقرطبة والمهدية في الملة الإسلامية وحال مصر والقاهرة بعدها."

4-2-2 نظرية العالم الألماني" ماكس فيبر" Max Weber : يرجع فيبر نمو المدينة إلى وظيفة السوق التي تتولاها المدينة، بحيث

تعتبر المدينة مركزًا تسويقيًا لمنتجات القرى المجاورة، ويتسع هذا المركز ليصبح مركزًا تجاريًا لقيامه بوظيفة جديدة إضافة إلى التسويق وهي تصنيع المنتجات الزراعية، وبتطور النشاط الاقتصادي للمدينة تزداد أهميتها ويظهر لها تنظيم إداري خاص بها، وتصبح لها مكانة سياسية .وعلى ذلك فالنظرية تقوم على أساس تقسيم العمل بين القرية والمدينة بحيث تختص الأولى في الإنتاج الزراعي بينما تختص الأخيرة بعملية تسويق هذا الإنتاج وتصنيعه (السيد، 1990).

3-2-4 نظرية"ابسن و تنبرك Ipsen & Tenbruck : هي نظرية تعرض تفسير فيبر السابق، لكونها ترى أن الوظيفة التسويقية للمدينة لابد وأن يسبقها دائمًا تنظيم اجتماعي وإداري وسياسي، وإن كانت أيضًا تقوم على أساس تقسيم العمل بين القرية والمدينة كأساس لظهور المدينة.

4-2-4 نظريات نمو المدن في العالم الصناعي : ظهرت هذه النظريات بعد الحرب العالمية الثانية لدراسة نمو المدن والمشاكل المترتبة على هذا النمو .وترجع النظرية النمو الحضري إلى الثورة الصناعية التي كان لها دورها الكبير في تدفق سكان الريف إلى المدن الصناعية الجديدة بحثًا عن فرص العمل بشكل كبير الأمر الذي أدى إلى انتشار المباني واتساع المدن بسرعة هائلة بشكل جعلها تتحول إلى كتل من المباني الشامخة والمصانع الضخمة ووسائل المواصلات السريعة (السيد، 1990).

ولعل أهم النظريات التي ظهرت في الآونة الأخيرة هي نظرية" **ليو كلاسين** "التي تناولت مراحل التطور الحضري وقسمتها إلى أربعة مراحل أساسية:

1-مرحلة التحضر :وهي المرحلة التي تظهر فيها الهجرة الكثيفة لسكان الريف وزيادة سكان المدن نتيجة للتوسع الصناعي.

2-مرحلة النزوح إلى ضواحي المدن :مرحلة تحدث مع نمو دخول الأفراد بشكل ملحوظ نتيجة لزيادة أجر العمل في القطاع الصناعي وفيها تتعقد حياة المدينة وتفقد مرونتها نتيجة لصعوبة المعيشة وارتفاع الإيجارات وأسعار السلع وظهور بعض مشاكل ازدحام المرور وتدهور الخدمات والتلوث ..الخ.

3-مرحلة التفكك الحضري :تتبع المرحلة السابقة نتيجة تناقص سكان المدينة وانخفاض أهمية قرب مكان السكن من العمل، خاصة مع تطور وسائل المواصلات وشق الطرق، ويلاحظ في هذه المرحلة الزيادة في صعوبة المعيشة وبداية تدهور المساكن الموجودة بوسط المدينة.

4-مرحلة إعادة التحضر :تظهر مع التدهور الشديد في حالة مساكن وسط المدينة وقدمها وعدم تماشيها مع مطالب السكن الحديثة وظهور تجمعات سكنية كبيرة في بنايات ضخمة لا يرتبط سكانها بأي علاقات اجتماعية لاختلاف مستوياتهم الثقافية والاجتماعية واختلاف أذواقهم وطباعهم .كما تفتقد المدينة طابعها التاريخي والتراث المعماري الخاص بها نتيجة لهدم المباني القديمة والأثرية وإحلال بنايات حديثة محلها، مما يؤدي إلى وجوب إعادة النظر في مشكلة التحضر .

يتبين لنا من استعراض نظريات نمو المدن أن هناك العديد من العوامل التي تعمل بصورة أو بأخرى على نمو وتطور المدن، لعل من أهمها التقدم العلمي والفني للإنتاج، وانخفاض متوسط تكلفة النقل، وظهور وفورات الإنتاج الخارجية والمحلية للمدينة، ومدى سهولة انتقال عناصر الإنتاج وتوزيعها بين المدن .ويلخص لنا الدكتور محمد حامد عبدالله في كتابه" الاقتصاد العمراني مع التطبيق على المدن العربية "أهم العوامل التي تؤدي إلى نمو المدن أو انحسارها.

5 - المدينة على ضوء علم الاجتماع الحضري:

إن معظم الدراسات المبكرة التي عالجت موضوع المدينة كانت تنتمي لعلوم أخرى غير علم الاجتماع الحضري كالتاريخ، والجغرافيا، والاقتصاد، والسياسة والآثار والفلسفة، حتى الدراسة الأولى التي قدمه احد علماء لاجتماع كانت معالجة اقتصادية، فقد كتب رينيه موريه René Mauret كتابه: «نشأة المدن ووظائفها الاقتصادية» سنة 1910 وكانت دراسته للمدينة دراسة اقتصادية (Lacase، 1995).

وقد كانت البداية الحقيقية لنشأة وتطور علم الاجتماع الحضري كمجال متميز للبحث والدراسة على يد العالم الأمريكي روبرت بارك R. Parkالذي كانت مقالته عن المدينة سنة 1915، بمثابة مرحلة جديدة لقيام فرع جديد ومستقل من فروع علم الاجتماع يوجه أساسا لدراسة المدينة (علم الاجتماع الحضري).

بلغ علم الاجتماع الحضري الذروة من الأهمية في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات تحت تأثير البرنامج الدراسي الذي وضعه بارك وزملاؤه في جامعة شيكاغو. وفي نفس الوقت لعبت ظروف العصر حينذاك دوراً هاماً في تحديد الموجهات النظرية والتصورية لهذه المدرسة .فقد ظلت التناقضات واضحة بين (المدينة) و(الريف) في الولايات المتحدة مما سهل النظرة إلى المستوطنات الحضرية على أنها تمثل شكلاً متميزاً وفريداً من نوعه عن أشكال التنظيم الاجتماعي (خالد، 1980).

1-5 مراحل نمو و تطور المدن :

يجمع العديد من علماء التاريخ المعاصرين و المعماريين أن كل المدن ، منذ نشأتها ، مرت بمراحل تاريخية ميزت تطورها و نموها من

الناحية الحجم و الشكل .هذه المراحل نوجزها فيما يلي (حسب عرض ممفورد) (Lacase، 1995):

1. مرحلة النشأة.Eopolis

2 مرحلة المدينة.Polis

3. مرحلة المدينة الكبيرة.Metropolis

4. مرحلة المدينة العظمى.Megalopolis

5. مرحلة المدينة التيرانوبوليس.Tyrannopolis

أ- مرحلة النشأة: ويقصد بها المدينة في فجر قيامها، وتتميز بانضمام بعض القرى إلى بعضها واستقرار الحياة الاجتماعية إلى حد ما، وقد قامت المدينة في هذه المرحلة بعد اكتشاف الزراعة واستئناس الحيوان، وقيام الصناعات اليدوية.

ب- مرحلة المدينة : وتمتاز بوضوح التنظيم الاجتماعي والإداري والتشريع، وتتفشى فيها التجارة، وتتسع الأسواق للمبادلة، وتتنوع الأعمال والوظائف والاختصاصات وتتميز بالتميز الطبقي بين مختلف الفئات، واتساع أوقات الفراغ، وظهور الفلسفات، ومبادئ العلوم النظرية والاهتمام بالفلك والرياضيات وقيام المؤسسات والفنون ونشأة المدارس.

ج- مرحلة المدينة الكبيرة: وتعرف بالمدينة الأم، ويتكاثف فيها عدد السكان، ويتوفر فيها الطرق السهلة وتربطها بالريف شبكة من المواصلات السريعة. وتهتم الحكومة فيها بتحقيق مطالب سكانها، وتنفرد بمميزات خاصة كالتجارة أو الصناعة. وتتنوع الوظائف وتعدد المهن والتخصص ونشأة المعاهد الفنية العليا.

د- مرحلة المدينة العظمى: وتتمثل في انبثاق المدن العظمى في القرن التاسع عشر، ويبدو في هذه المدن التنظيم الآلي والتخصص وتقسيم العمل. وظهور الفردية وتنتشر النظم البيروقراطية في الإدارة وأجهزة الحكم، ويظهر الصراع الطبقي بين العمال وأصحاب الأعمال، مما يؤدي إلى تناقضات اجتماعية وفساد في الإدارة، وتنتشر الانحرافات.

هـ- مرحلة المدينة التيرانوبوليس: وتمثل أعلى درجات الهيمنة الاقتصادية للمدينة، فيها تعتبر مسائل (الميزانية والضرائب والنفقات) من أهم الميكانيزمات المسيطرة، كما تظهر المشكلات الإدارية والفيزيقية والسلوكية الناجمة عن كبر الحجم ويشهد المجتمع حركة واسعة النطاق للرجوع إلى الريف أو إلى مناطق الضواحي والأطراف هرباً من ظروف العيش غير المرغوبة .

2-5 أسباب ظهور المدن :

لظهور المدن أسباب تقوم عليها و ترتبط بها إرتباطاً عضوياً و من ثم تنحصر أو تزول بزوالها . و هذه الأسباب أهمها الموقع المحصن و المواطن الصناعية - أو الحرفية – و التجارية و مواقع السياحة و الاستجمام ، الإضافة إلى المواقع الأثرية و الدينية و السياسية .

و قد يجتمع أكثر من سبب في نشوء و بناء مدينة معينة ، و هي تختلف من موقع إلى أخر.

تظهر في كثير من الحالات العوامل المميزة لإنشاء المدن بشكل واضح في نسيجها العمراني و قد لا تظهر إلا من خلال الدراسة المتمعنة و التحليل من كل جوانبه سواء الجغرافية (الموقع) أو الاجتماعية (أصول و انتماءات الأفراد) أو الاقتصادية. و لتوضيح أهم الجوانب التي تكمن وراء تكوين – إنشاء - المدن ، يمكننا أن نعرض جملة من الأسباب التي ذكرها العديد من اختصاصي علم العمران ، و من أهمها (بوجمعة، 2005):

أ- الأسباب الدفاعية :

يعتبر العامل الدفاعي من أقدم الأسباب التي أدت إلى إنشاء الحواضر (الوسط الحضري) و قبلها المساكن .

فالبداية كانت مع إنشاء ملجأ أو (مأوى) ليكون سكنا للإنسان يحتمي فيه من الخطر المتعدد الذي يمكن أن يهدده و مع تطور العمران و الاجتماع صار الإنسان يبحث عن المواقع الإستراتيجية التي تمنحه الأمان لبناء المدن و الدفاع عنها.

ب -الأسباب الصناعية :

بعد بروز الثورة الصناعية في أوربا خاصة ، تمركزت المدن حول أماكن تواجد المواد الأولية كالحديد و الفحم و المواد الثمينة و توفر اليد العاملة. فكان اختيار الموقع يرتبط **بحتمية مكانية** و يلتزم بها.و لهذا نجد أن هذا العامل ينعكس بوضوح في خريطة المدن التي برزت مع بداية هذا التحول.

و مع تسارع النشاطات الصناعية و تطور وسائل النقل و الاتصال ، حررت المصممين و مخططي المدن من حتمية المكان في المدن التي تقام لأسباب صناعية ، و تم التفريق بين المصانع و أماكن السكن ، إلى جانب ذلك ، عرفت الكثير من النشاطات الحرفية الفنية تطوراً هائلاً مثل صناعة الدباغة والنقش على النحاس و الخشب و صناعة الجلود بالإضافة إلى الورشات المختصة في بعض الأعمال ذات الصبغة الفنية الإبداعية و التي تتطلب يد عاملة متخصصة.

يكمن أن نذكر من بين المدن العربية التي عرفت بانتشار الورشات الحرفية الفنية كمدينة فاس (المغرب) و التي تعتبر من بين المدن العالمية التي اشتهرت بأسواقها التي تعرض فيها الصناعات الحرفية كسوق النحاسين و الدباغين (الحميد، 1989) . أما في

المشرق العربي ، فنجد مدينة دمشق (سوريا) ذات الحارات (الأزقة) الناشطة بفعل الحركة الدائبة للبائعين و الحرفيين من مختلف الاختصاصات و الأعمال الفنية كصناعة الزجاج و الحلي و الفخار و الورق .

ج -الأسباب التجارية :

ظهرت و تطورت مدن كثيرة عبر العصور و الأزمنة على مسار الخطوط التجارية البحرية و البرية و الجوية (في العصر الحديث).فقد شكلت المدن ملتقى هذه الخطوط و تقاطعها حيث أعطاها ميزة تواجد بعض المرافق الخاصة كالخانات (فنادق بالمفهوم القديم) المعدة للاستراحة من عناء السفر.و تكثر هذه المدن في الطريق الرابط بين البلدان و القارات كما هو الحال بالنسبة لالتقاء آسيا (اسطنبول) بإفريقيا.

لقد قامت في هذا المجال و على مرافئ السفن أسواق تجارية كبرى و صناعات تحويلية كما هو الحال في المدن الإيطالية و الإسبانية الساحلية و كل ساحل البحر الأبيض المتوسط و ميناء مدينة دبي حالياً ، الذي يعتبر من أضخم الموانئ في العالم اليوم.

بالإضافة إلى الأسباب المذكورة آنفاً ، توجد أسباب أخرى أدت إلى ظهور المدن ، لكنها تختلف باختلاف الظروف المرتبطة بالزمان و المكان. و من هذه الأسباب يمكننا أن نذكر (مشاري، 2006) :

- ✓ الأسباب السياحية.
- ✓ الأسباب الدينية أو العقائدية.
- ✓ الأسباب السياسية و الإدارية.

6- متطلبات المدن في ظل التطورات الحديثة :

لقد أصبحت اليوم المشاكل العمرانية في ازدياد مستمر و خاصة مع الزيادة الديموغرافية المتسارعة ، حيث أجبرت هذه الوضعية المخططين و المسؤولين على العمران الحضري و تسيير المدن على التفكير في إنشاء " مدن متكاملة ليس فقط على المستوى العمراني ، و إنما أيضاً على المستوى الوظائفي و مستوى النشاطات تسمى " المدن الجديدة" (J.P.PAULET، 2001).

وبالمفهوم التخطيطي يعني ذلك إنشاء مدينة متكاملة يتعدى عدد سكانها 50.000 نسمة ، و تتعدد فيها الوظائف (الوظيفة السكنية، وظيفة العمل ،الوظيفة التجارية ،الخدمات... الخ)، بحيث يمكن تقليص الحاجة إلى التردد على المركز القديم.

فالمدن الجديدة من حيث المنطلق هي إبداع مميز بمتطلبات تقنية و ثقافية خاصة. كما أن شكلها النهائي لم يكن ثمرة تطور عبر الزمن ، و إنما تم تصورها كمشروع متكامل وفق رسم تم إعداده مسبقاً.

6-1- أصل المدن الجديدة :

إن فكرة المدن الجديدة ليست وليدة النهضة الحديثة و " إنما هي موجودة منذ العصور القديمة خاصة في المستعمرات الرومانية " (CHALAS, 2000). فقد شيدت مدينة (سر من رأى) بالعراق مثلاً لتخلف بغداد كعاصمة للحكم و أنشأ لويس الرابع عشر مدينة فرساي. فهذه المدن قامت على أساس إداري لتلبية غرض معين.لكن ما يمكن الاعتراف به هو أن مفهوم المدينة الجديدة تطوراً كثيراً في القرن العشرين و أصبح يمثل سياسة تخطيطية قائمة بذاتها.

6-2- أهداف و خصائص المدن الجديدة :

على اعتبار أهمية الجانب التقني و العمراني في إنشاء المدن ، هناك اعتبارات إستراتيجية تفرض نفسها في الأهداف المنتظرة من المدن الجديدة .فخلال الحرب العالمية الثانية مثلاً ، طلبت الحكومة الانجليزية من بارلو (SIR Barlow) إعطاء مقترحات لتجاوز الشعور بالخوف من الأخطار التي تحدق بالمرافق العامة الصناعية و الحضرية خاصة في العاصمة لندن.

و في سنة 1940 تحصلت الحكومة البريطانية على تقرير يوصي بوضع حد للتركز الصناعي بتشجيع الصناعات في المناطق الريفية و تخفيف التجمعات السكانية الكبيرة عن طريق خلق مدن جديدة مما يعني أن هذا الحل كان عبارة عن إستراتيجية دفاعية .

و من خلال استعراضنا للتجارب الانجليزية و الفرنسية يمكننا أن نستخلص أهداف إنشاء المدن الجديدة و التي تتمثل في ما يلي :

- ✓ أهداف عمرانية : و تتمثل في تخفيض التركز الحضري على المدن الكبرى و خاصة العواصم و خلق بعض التوازن و توفير السكن اللائق.
- ✓ أهداف بيئية (ايكولوجية) : و يقصد بها توفير التهوية لمراكز المدن الكبرى عن طريق تخفيض عدد السكان و زيادة المساحات الخضراء مما يساعد على التقليل من التلوث الهوائي و الضجيج.
- ✓ أهداف اجتماعية : تتلخص في الحد من التمايز الاجتماعي السائد في المدن الكبرى و توفير إطار حياتي مقبول لأغلبية شرائح المجتمع ، و خلق نشاطات تخدم هذا الغرض.

✓ أهداف اقتصادية : و هي خلق فرص عمل جديدة عن طريق تنويع الوظائف و النشاطات الاقتصادية التي لها علاقة باحتياجات السكان بصفة مباشرة و غير مباشرة كالمراكز التجارية و المحلات.

و منه يتضح لنا أن خصائص المدن الجديدة يمكن أن تتجلى في :

- غياب نواة قديمة في أغلب الأحيان.
- تخطيط مسبق وفق خطة هندسية مدروسة.
- وجود وظيفة محددة أو طابع محدد للمدينة.
- سرعة النمو بحيث يزداد حجم المدينة بسرعة كبيرة ليبلغ الأهداف المرسومة إلى جانب التأكيد على التوازن بين السكن و فرص الشغل بما يضمن الديناميكية الاقتصادية و الاجتماعية

خاتمة

إن المتتبع للمقاربات التي أعطاها الكثير من المهتمين بالمدن و الحياة الحضرية في مختلف أشكالها و بنياتها ليدرك للوهلة الأولى أن المدينة أو المجال الحضري ، كما يسميه علماء السوسيولوجيا ، ليست وليدة الصدفة أو العفوية ، بل كانت دائماء نتيجة تقاطع الزمان و المكان مع إرادة الإنسان في إنشاء الحياة الاجتماعية و تنظيمها.

فنجد أن مانويل كاستلز Manuel castells على سبيل المثال يؤكد ، أن المجال الحضري في إشارته إلى المدينة على أنها "عبارة عن منتوج (produit) مادي ، له علاقة مع عناصر مادية أخرى ، يعني أنه لم ينشأ صدفة بل متصل بالسيرورة الاجتماعية . إن هذا التصور ، و من خلال ماعرضناه سابقاء في ثنايا هذا البحث ، هو الذي يدفعنا أن نؤكد أن الاجتماع الإنساني في ذلك الفضاء المسمى " المدينة " مرتبط في نشأته ضمن معلمي الزمان و المكان بأسباب مادية و أخرى تاريخية في سيرورة متراكمة تجمع بين الماضي و الحاضر و تتطور لتصنع للإنسان مجالاء يفرض عليه و يقيده ، مفضياء إلى ما أسميناه بحتمية الزمان و المكان.

المراجع:

المراجع باللغة العربية :

1. ابن خلدون, ع. ا. (1984). المقدمة :تاريخ ابن خلدون .تونس :الدار التونسية للنشر و التوزيع.
2. أفيبريونوس, د. (1996). الإنسان و المدينة .مجلة علم المعرفة .22 ,(132)
3. الحميد, ر. ح. (1989). المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري .الاسكندرية :المكتب الجامعي الحديث.
4. السيد, ا. ع. (1990). علم الاجتماع الحضري -مدخل نظري .(Vol)الجزء الأول .(الاسكندرية :دار المعرفة.
5. بوجمعة, خ. ا. (2005). العمران و المدينة .عين مليلة :دار الهدى للطباعة و النشر.
6. خالد, ع. أ. (1980). تخطيط المدن .القاهرة :دار المعارف.
7. غيث, ع. (1989). المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري .الاسكندرية :المكتب الجامعي الحديث.
8. مشاري, ا. (2006). مدن بلا أسواق .مجلة القافلة)العدد .52 ,(4

المراجع باللغة الأجنبية :

9. CHALAS, Y. (2000). L'invention de la ville. Paris: Edition Economia.
10. J.P.PAULET .(2001) .Géographie urbaine .Paris: Armon Colin.
11. L.B, A. (1976). Les quatres livres de l'architecture. Milan: Electa.
12. Lacase, J.-P. (1995). Introduction à la planification urbaine. Paris: Ecole Nationale des ponts et chaussées.